على هامش الفلسفة

للأستاذ محمد يوسف موسى

قرأت كلمة الأستاذ الكبير عباس العقاد بعدد الرسالة رقم ٣٣٥ التي عنوانها « مع أبي العلاء في سجنه » وفيها يتعقب الدكتور طه حسين بك في بعض ما ذكره في بحثه عن شيخ المعرة رهين المحبسين، إذ لا يرضى ما فهم من قول أبي العلاء في بعض فصوله: « بقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجاري دمعه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي إلى الغرض على هامته ... » لا يرضى أن فيلسوف المعرة « قصد بهذا الفصل خاصة إلى رأي من أشد الآراء الفلسفية الأبيقورية خطراً ، وهو إنكار العلة الغائية وإثبات أن العالم كما هو لم يخلق لغاية معينة من هذه الغايات التي نعرفها نحن ونزعم أن الأشياء خلقت لتحقيقها » . ويرى — أي الأستاذ العقاد — أن هذا الرأي من الدكتور فيه شيء من الصواب ، ولكن « أصوب من هذا أن يقال إن رأي المعري شبيه برأي المعاصرين الذين يقولون : إن الوظيفة تخلق العضو ، وإن القوة تسبق الظاهرة » .

هذه الكلمة أثارت مني رغبة كامنة في متابعة الكتابة في الرسالة — تحت عنواني الذي اخترته العام الماضي ، وهو على هامش الفلسفة — لو إلى ذلك سبيل الآن ! ذلك أن البحث الذي أعنى بإعداده هذا العام أو بالتحضير له عن ابن رشد ومكانته في الفلسفة الإسلامية يملك عليّ كل أمري ويستأثر بكل وقتي أو لا يدع هذه الرغبة تخرج من القوة للفعل ، إلى حين أرجو أن يقصر أمده إن شاء الله تعالى . إلا أن اتصال الموضوع الذي أثاره الأستاذان عن غير قصد بالدراسات التي أحبس نفسي عليها هذه الأيام ، جعل من الواجب أن أكتب كلمة قصيرة أبين فيها أن التوفيق أخطأها كليهما فلم يصيبا المحز. وإلى القارئ البيان:

تشير كلمة أبي العلاء — فيما أرى إن كان قالها جادًّا — إلى مسألة الأسباب والمسببات التي ثار حولها الخلاف الشديد بين الغزالي وبين الفارابي وابن سينا في تهافت الفلاسفة . ثم أثارها بعده ابن رشد في تهافت التهافت الذي كتبه دفاعاً عن الفلسفة والفلاسفة ضد ما وجهه الغزالي من هجمات نالت من الجميع نيلاً كبيراً ، ولا تزال الفلسفة متأثرة بها حتى هذا العصر الذي نعيش فيه

يرى الغزالي ، ممثل المتكلمين في عصره ، أنه كان من الممكن أن يكون العالم على غير ما نشاهد الآن ، وأن ما نظنه سبباً للإبصار أو الكلام أو الموت أو الحياة أو ما نعتقده أداة لشيء من هذا ونحوه ليس كذلك في نفسه ، بل لأن الله قدره هكذا أزلاً . وفي ذلك يقول : « الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا — فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر . مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ... وإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقهما على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه . بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات، وأنكر الفلاسفة إمكانه وادعوا استحالته[1] »

إذاً فعند الغزالي أنه يمكن أن يجعل الله العين أداة وسبباً للشم لا للإبصار ، والأذن للشم لا للسمع ، وأن يخلق الشبع دون سببه وهو الأكل ، والري دون الشرب ، وهكذا إلى سائر الأمور التي نعتقدها أسباباً تتلوها حتماً مسبباتها

أما ابن رشد — وقد جعل من نفسه مدافعاً عن الحكمة ، وهي كما يقول : صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة — فيرى أن لكل شيء سبباً لا يتخلف عنه ، ولكل عضو عملاً لا يعدوه ، وأن « العقل ليس هو شيئاً أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها وبه يفترق عن سائر القوى المدركة ، فمن رفع الأسباب فقد رفع

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي ص ٢٧٧ — ٢٧٨ الطبعة العلمية للاب بوريج

العقل . وصناعة المنطق تضع وضعاً أن ههنا أسباباً ومسببات ، وأن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورفع له[1] » ثم يعود إلى تأييد نظريته هذه في موضع آخر فيقول : « ولو ارتفعت الضرورة عن كيات الأشياء المصنوعة وكيفياتها وموادها كما تتوهم الأشعرية مع الخالق لارتفعت الحكمة في الصانع والمخلوقات . . . إلى أن يقول : وهذا كله إبطال للعقل والحكمة[2] »

على أنه لا يجب أن يتبادر للذهن أن ابن رشد ، الرجل الذي كان يرى اكتفاء الأسباب بنفسها في خلق مسبباتها . فمن الحق أن نقول إنه يقرر « أنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل بل بفاعل من خارج فعله شرط في فعلها بل في وجودها فضلاً عن فعلها[1] »

أعتقد أن القارئ يرى معي بعد ما سقناه من كلام الغزالي وفيلسوف قرطبة ، أن الدكتور طه حسين بك لم يكن مصيباً فيما أكده من أن شيخ المعرة كان يرمي بقولته التي أسلفنا إلى شيء من الفلسفة الأبيقورية ، وأن الأستاذ الكبير العقاد لم يكن موفقاً كذلك في التعقيب عليه ، وأن المعري لم يقصد بكلمته — إن كان سلك فيها مسلك الجد — إلا الإشارة لفلسفة المتكلمين الذين يدفعون التلازم بين الأسباب والمسببات على النحو الذي ذكرناه عن ممثلهم وزعيمهم في عصره حجة الإسلام الغزالي . وبالله التوفيق .

محمد يوسف موسى

(١) تهافت التهافت لابن رشد ص ٥٢٢ الطبعة العلمية للأب بوريج
(٢) المرجع نفسه ص ٩٣

(١) المرجع نفسه ص ٥٢٤

الرسالة في سنتها الثامنة

تدخل الرسالة عامها الثامن في أول يناير وهي أقوى ما تكون اعتماداً على فضل الله وعطف أنصارها في تذليل كل عقبة

وعلى الرغم من استحكام أزمة الورق وغلائه الفاحش في العالم كله ستستمر الرسالة على تخفيض اشتراكها ومنح هداياها وإصدار عددها الممتاز — فمن الآن إلى آخر شهر يناير الآتي سيكون الاشتراك في الرسالة مميزاً بما يأتي :

٦٠ ستون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان تدفع من الآن إلى آخر يناير ويكون للمشترك الحق فيما يساوي خمسة عشر قرشاً من الكتب القيمة التي سننشرها في عدد أول يناير من الرسالة

٥٠ خمسون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان للمعلمين الالزاميين وطلاب المعاهد والمدارس تدفع في أثناء المدة المذكورة ويكون للمشترك الحق كذلك فيما يساوي خمسة عشر قرشاً من كتب الهدايا. ويجوز لهم دفع الاشتراك خمسة أقساط متتابعة.

والاشتراك في البلاد العربية كالاشتراك في مصر من حيث القيمة والمدة والهدايا ، وإنما يدفع المشترك فيها فرق البريد وهو أربعون قرشاً في العراق ، وعشرون قرشاً في سائر البلاد العربية

الرواية

أما الرواية فسندعمها مؤقتاً في الرسالة حتى يسهل ورود الورق فتصدر منفردة بشكل أفخم ونظام أجمل . وستعنى الرسالة فيما تعنى به من الأمور الجديدة بالأقصوصة فيكون في كل عدد منها أقصوصة أو أقصوصتان من أروع ما يوضع أو ينقل .

الاشتراك في الرسالة الآن يضمن لك دائرة معارف ومكتبة

من وراء المنظار

حلاقو القاهرة . . . !

لا تفهم يا قارئى العزيز أنى أعقد لك فصلاً تاريخياً عن منظر من مناظر القاهرة العظيمة فى زمن ابن طولون أو فى زمن الحاكم بأمر الله أو فى زمن قلاوون عليهم رحمة الله، فإنى لا أكتب هنا إلا عما يقع عليه منظارى . . . وإنما أنا محدثك عن منظر من مناظر هذه العاصمة الكبيرة فى القرن العشرين بل وفى عام ١٩٣٩ الذى أوشك أن ينطوى على وجه التحديد

ولا تتوهم أنى فيما أصف لك أذهب بك إلى تلال زينهم أو إلى أعلى الدراسة أو إلى جوار المحمدى أو إلى ما وراء سيدى الحلى ؛ فإنك قد تنكر على ما أقول لجهلك فيما أظن مظاهر العيش فى هاتيك البقاع . . . على أنه قد لا يكون جهلك بها أكثر من جهلى

وإن لك فى أقرب شوارع المدينة غنية عن الذهاب إلى أطرافها فسر فى شارع ماسبيرو على ضفة النيل أو فى شارع شبرا حيث المدرسة التوفيقية أو فى شارع الملكة نازلى أو حول حديقة الأزبكية وانظر ماذا ترى

لاشك أنك رأيت هؤلاء الحلاقين الذين يتربعون على الأرض أو على الأسوار ويأخذون فى حلق رؤوس زبائنهم ولحاهم فى صورة تدعو إلى الاشمئزاز والأسف والضحك جميعاً

وقفت على مقربة من أحدهم ورأيته وقد شمر عن ساعديه وأمسك بالموسى ودعا إليه من زبائنه الجالسين حوله من جاء دوره . ومثل الرجل بين يديه وله لحية ما أحسبه أجرى الموسى عليها منذ مثل هذا اليوم من العام الماضى ؛ ووضع الحلاق كفه فى إناء بجواره فاغترف غرفة من الماء بيده ورشها على تلك الأشواك الكثيفة فى وجه صاحبنا وأجرى عليها قطعة من الصابون ، ثم شحذ الموسى على ذراعه بأن حكها بها عدة مرات فى سرعة عجيبة ولما استيقن من مضيها راح يقطع هاتيك الأشواك ، ثم يمسح ما تجمع منها على حافة سلاحه فى ظهر يسراه أو يأخذها على سبابته ويقذف بها فى الجو لا يبالى أين تقع ولا من يصيب برشاشها . . .

ونظرت إلى الحلاق وزبائنه أتبين ماذا كان يخالجهم شعور من المبالاة ، فلم أصب فى وجوههم إلا مثل ما يرى فى الحيوانات من عدم المبالاة فيما تأتيه من أعمالها جميعاً على أعين الناس ؛ وكأن هؤلاء الناس جلوس فى دكان لا تفتحهم فيه الأعين !

وهممت أن أدور بمنظارى عن هذا المنظر الذى لست أدرى لم وقفت إليه تلك اللحظة ، وقد كنت أبداً أمر به مسرعاً ، وإنى لأضيق به أشد الضيق، وكأن الظروف أرادت أن تكيد لى أشد الكيد فلا تقلع عن العناد حتى فى مثل هذا الموقف التافه ؛ فهذا غريب مقبل ومعه سيدة وفى يده آلة تصوير ، وإنه ليضحك ملء شدقيه كأنما يقع من الحلاق وزبائنه على بغية طالما تمناها

وأعد الفرنجى آلته للتصوير ، ولشد ما غاظنى أن أرى الحلاق ومن حوله يضحكون ضحكة البلهاء كأنما يفرحهم أن يأخذ « الخواجة » صورهم ، وسمعت ذلك « الخواجه » يقول لصاحبته بالإنجليزية ما ترجمته : « أنظرى فسنحصل على صورة ظريفة لحلاق القاهرة »

ودنوت منهما فسلمت وتكلفت الابتسام أولاً ، ثم عبست وبالغت فى العبوس لأعبر عن احتجاجى ، وتكلمت فى لهجة استخذى لها ذلك الغريب ، وحار ماذا يقول ؛ وأشارت إليه صاحبته فطوى آلة التصوير؛ وكأنما أملى عليه إحساسه بالغربة أمام احتجاجى الشديد أن يتلطف فاعتذر ، ولكنه أعقب اعتذاره بقوله : « جميل منك أن تغضب لسمعة شعبك ولكن أجمل من ذلك أن تزيحوا عن الأعين ما يشوه هذه السمعة »

وجميل من الرجل قوله هذا لا شك عندى فى ذلك ؛ ولكن ما حيلتى وما أملك غير القرطاس والقلم !

ليس يهمنى من هذا المنظر وأشباهه ما عسى أن يقول عنا الأجانب من أجله فحسب ، وإنما أراه على ذلك شيئاً تتأذى به العيون وتشمئز منه النفوس . ولئن لم تقع عليه وعلى أمثاله أعين غير أعيننا ، ففيه مما يشمئز بالضعة والمعجبة

« ديب »